318698 ـ الجمع بين قوله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) مع وضع السيئات على بعض الناس .

السؤال

عندي سؤال كيف نجمع بين الآية الكريمة : (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) فاطر/17 – 18، وبين خصام الناس عند الله تعالى يوم القيامة فيؤخذ للمظلوم حقه من الظالم؛ كأن يؤخذ الثواب من الظالم للمظلوم، أو يعطى للظالم سيئات المظلوم، فهل يعطى لظالم حتى الكبائر من سيئات مظلوم؛ مثال: هل يحاسب الظالم على كبيرة الزنا ـ والعياذ بالله ـ على إثر سيئة من المظلوم أخذها حتى ولو لم يرتكبها ؟ أؤمن بعدل الله ، وأن الله سينصف كل مظلوم لكن أردت التوضيح .

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولًا :

لا شك أن كل إنسان يوم القيامة يحاسب على ذنبه هو ، ولا يظلم ربك أحدًا ، ولا يحمل إنسان تبعة إنسان آخر ، كما في قوله تعالى : وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى الأنعام/164 .

ولا شك أيضا في تمام عدل جل جلاله، وتنزهه عن ظلم أحد من عباده ، أدنى شيء من الظلم: وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا الكهف/49 ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ يونس/44 .

وقد وعد الله جل جلاله عباده : أن كل إنسان إنما يحاسب بعمل نفسه، لا بعمل غيره، فإما أن يوبقه عمله، أو يعتقه من النار ؛ قال الله تعالى : كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ الطور/21، وقال تعالى: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ المدثر/38.

وما استشكله السائل من النصوص على هذا الأصل فلا إشكال فيها بحمد الله تعالى.

فمن ذلك: أئمة الكفر والضلال، الذين دعوا الناس إلى الكفر، أو الضلال ، أو المعاصي، فتأثروا بهم ، وعملوا بأعمال السوء التي تعلموها من سادتهم وكبرائهم ؛ سوف يتحمل هؤلاء السادة والكبراء وزر من تبعهم على هذه الأعمال. وليس ذلك لأنهم يتحملون ذنب غيرهم ، ولا أنهم يزرون أوزار الناس؛ لا ، بل هم يتحملون وزر أنفسهم هم ، ووزر عمل الدعوة إلى الضلال، وسنن السوء التي سنوها للناس ، ويبقى إثم أتباعهم على السوء والمعاصي عليهم ؛ فلكل منهم حظه ونصيبه من عمله، وما

اقترفت يداه.

قال الله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ العنكبوت/ 12 ـ 13 .

قال الشيخ السعدي رحمه الله:

" يخبر تعالى عن افتراء الكفار، ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم، وفي ضمن ذلك، تحذير المؤمنين من الاغترار بهم ، والوقوع في مكرهم، فقال: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا، فاتركوا دينكم أو بعضه ، واتبعونا في ديننا، فإننا نضمن لكم الأمر وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ، وهذا الأمر ليس بأيديهم، فلهذا قال: وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، لا قليل ولا كثير. فهذا التحمل، ولو رضي به صاحبه، فإنه لا يفيد شيئا، فإن الحق لله، والله تعالى لم يمكن العبد من التصرف في حقه إلا بأمره وحكمه، وحكمه أن لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .

ولما كان قوله: وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ قد يتوهم منه أيضا، أن الكفار الداعين إلى كفرهم ـ ونحوهم ممن دعا إلى باطله ـ ليس عليهم إلا ذنبهم الذي ارتكبوه، دون الذنب الذي فعله غيرهم، ولو كانوا متسببين فيه، قال، مخبرا عن هذا الوهم: وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ أي: أثقال ذنوبهم التي عملوها وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ، وهي الذنوب التي بسببهم ومن جَرّائهم، فالذنب الذي فعله التابع : لكل من التابع والمتبوع : حصته منه، هذا لأنه فعله وباشره، والمتبوع لأنه تسبب في فعله ودعا إليه، كما أن الحسنة إذا فعلها التابع : له أجرها بالمباشرة، وللداعي أجره بالتسبب. وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ من الشر وتزيينه، وقولهم: وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ " انتهى من "تفسير السعدي" (627).

وفي هذا المعنى، ونحوه: ما رواه مسلم في صحيحه (1017)، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله: مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ .

ثانيا :

ومثل ذلك أيضا ما رواه مسلم في "صحيحه" (2581) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ ، فَقَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ ، وَصِيَامٍ ، وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ .

قال النووي : " قَالَ الْمَازِرِيُّ : وَزَعَمَ بَعْضُ الْمُبْتَدِعَةِ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ مُعَارِضٌ لِقَوْلِهِ تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) ؟

وَهَذَا الِاعْتِرَاضُ غَلَطٌ مِنْهُ ، وَجَهَالَةٌ بَيِّنَةٌ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا عُوقِبَ بِفِعْلِهِ وَوِزْرِهِ وَظُلْمِهِ ، فَتَوَجَّهَتْ عَلَيْهِ حُقُوقٌ لِغُرَمَائِهِ ، فَدُفِعَتْ إِلَيْهِمْ مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَلَمَّا فَرَغَتْ ، وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ ، قُوبِلَتْ عَلَى حَسَبِ مَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ ، وَعَدْلِهِ فِي عِبَادِهِ ؛ فَأُخِذَ قَدْرُهَا مِنْ سَيِّئَاتِ خُصُومِهِ ، فَوُضِعَ عَلَيْهِ ، فَعُوقِبَ بِهِ فِي النَّارِ .

فَحَقِيقَةُ الْعُقُوبَةِ إِنَّمَا هِيَ بِسَبَبِ ظُلْمِهِ وَلَمْ يُعَاقَبْ بِغَيْرِ جِنَايَةٍ وَظُلْمٍ مِنْهُ "انتهى من "شرح مسلم" (16/ 136).

وفي هذا الحديث العظيم الجليل : تحذير شديد من أن يفني العبد حسناته التي تعب في جمعها، في أداء ما عليه من حقوق العباد، وقضاء مظالمهم يوم القيامة.

قال الشيخ ابن عثيمين، رحمه الله، في "شرح رياض الصالحين" (2/ 528) :

" الاستفهام هنا للاستعلام الذي يراد به الإخبار ؛ لأن المستفهِم تارة يستفهم عن جهل ولا يدري، فيسأل غيره ، وتارة يستفهم لتنبيه المخاطب لما يلقى إليه ، أو لتقرير الحكم .

فمثال الثاني قول النبي صلى الله عليه وسلم، وقد سئل عن بيع الرطب بالتمر: " أينقص إذا جفّ؟ " يعني الرطب ، قالوا : " نعم" . فنهى عن ذلك.

أما في هذا الحديث فسيُخبر الصحابة عن أمر لا يعلمونه ، أو لا يعلمون مراد النبي صلى الله عليه وسلم به ، قال : أتدرون من المفلس؟ قالوا يا رسول الله ، المفلس فينا من لا درهم عنده ولا متاع ، يعني: ليس عنده نقود ، ولا عنده متاع ، أي : أعيان من المال ، أي أن المفلس يعني الفقير. وهذا هو المعروف من المفلس بين الناس ، فإذا قالوا : من المفلس؟ يعني الذي ليس عنده نقود ، ولا عنده متاع ، بل هو فقير.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة" ، وفي رواية: " من يأتي بحسنات مثل الجبال" ، أي يأتي بحسنات عظيمة ، فهو عنده ثروة من الحسنات ، لكنه يأتي وقد شتم هذا ، وضرب هذا ، وأخذ مال هذا ، وسفك دم هذا ، أي اعتدى على الناس بأنواع الاعتداء ، والناس يريدون أخذ حقهم ، ما لا يأخذونه في الدنيا يأخذونه في الآخرة ، فيقتص لهم منه ؛ فيأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، وهذا من حسناته بالعدل والقصاص بالحق ، فإن فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار ، والعياذ بالله.

تنقضي حسناته ، ثواب الصلاة ينتهي ، وثواب الزكاة ينتهي ، وثواب الصيام ينتهي ، كل ما عنده من حسنات ينتهي ، فيؤخذ من سيئاتهم ويطرح عليه ، ثم يطرح في النار ، العياذ بالله.

وصدق النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإن هذا هو المفلس حقاً ، أما مفلس الدنيا فإن الدنيا تأتي وتذهب ، ربما يكون الإنسان فقيراً فيمسي غنياً ، أو بالعكس ، لكن الإفلاس كل الإفلاس: أن يفلس الإنسان من حسناته التي تعب عليها ، وكانت أمامه يوم

القيامة يشاهدها ، ثم تؤخذ منه لفلان وفلان.

وفي هذا تحذير من العدوان على الخلق ، وأنه يجب على الإنسان أن يؤدي ما للناس في حياته قبل مماته ، حتى يكون القصاص في الدنيا مما يستطيع، أما في الآخرة فليس هناك درهم ولا دينارٌ حتي يفدي نفسه ، ليس فيه إلا الحسنات ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " فيأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم ثم طرح عليه وطرح في النار".

ولكن هذا الحديث لا يعني أنه يخلد في النار ، بل يعذب بقدر ما حصل عليه من سيئات الغير التي طرحت عليه ، ثم بعد ذلك مآله إلى الجنة ؛ لأن المؤمن لا يخلد في النار ، ولكن النار حرها شديد، لا يصبر الإنسان على النار ولو للحظة واحدة ، هذا على نار الدنيا ، فضلاً عن نار الآخرة ، أجار الله وإياكم منها" ، انتهى .